ISSN : 2543-3938 - EISSN : 2602-7771

حجاجية الصور البيانية في القرآن الكريم
سورة يوسف عليه السلام أنموذجًا

Pilgrims of graphic images in the Holy Quran
Surat Yusuf, peace be upon him, is a model

د. علي أحمد عمران
أستاذ البلاغة والنقد والأدب المشارك
رئيس قسم الإعلام والعلاقات العامة
عميد مشارك لكلية الآداب والعلوم
الجامعة الأهلية – مملكة البحرين
dr.aliomran7@gmail.com

تاريخ الإستلام: 06/ 10 / 2021 **تاريخ القبول**: 09/ 12 / 2021 **تاريخ النشر**: 30/ 12 / 2021

ملخص:

لقد كثرت الدراسات العربية في القرآن الكريم وبمختلف التخصصات الشرعية واللغوية، ولا غرابة في ذلك فهو الكتاب الأوسع والحدث الأكبر الذي اهتمت به الأمة، وصرفت جهودًا جبّارة لدراسته؛ لأنّ العلوم كلها كانت منبعثة منه، فلابد أن تعود إليه بالدراسة. ولهذا تميز النص القرآني الكريم بخصائص كثيرة منبعها سمة الإعجاز فيه، وسحر بيانه، فمن هذه الخصائص أسلوب الحجاج القائم على الحجة والبرهان والاستدال لتحقيق المقاصد.إنّ النص القرآني إعتمد على آليات بيانية تتعلق بالحجاج كوسيلة أساسية من وسائل الإقناع والتأثير، فالقرآن خطاب حجاجي موجه في أساسه للتأثير على آراء المخاطَب وسلوكه، واستمالة النفوس، وتوجيه العقول؛ لكونه جاء ردًا على خطابات تعتمد على عقائد ومناهج مخالفة، فهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فيقدم حججًا مختلفة للبرهان على صدقه، وأنّ الحق معه، وقد وظف الكثير من الأساليب الحجاجية التي تؤمن هذه الغايات، ونحن في هذا البحث نعالج الصور البيانية في سورة يوسف عليه السلام بغية تحقيق الهدف من هذا البحث وهو الكشف عن الحجاجية في القصص القرآني، واثبات أنّ الكلام في القصص القرآني كلامٌ حجاجي. أي الكشف عن حجاجية القصة القرآنية، وتمثل تجلياتها وصورها من خلال سورة يوسف عليه السلام. وإنّ الخصوصية الجوهرية المتمثلة في الإقناع والاستمالة والتأثير التي توافرة في القرآن الكريم، والتي جعلت منه خطابًا حجاجيًا بالدرجة الأولى، جعلتنا نستفيد من المنهج التداولي في الكشف عن الصور البيانية التي وظفها القرآن للإقناع، والمنهج الاستقرائي في جمع المادة العلمية. ونحاول في هذا البحث الإجابة عن السؤال الآتي:

1- ما أهم الصور البيانية الموظفة في القصة القرآنية في سورة يوسف عليه السلام لتحقيق الإقناع؟

وفي الخاتمة وضعت أبرز النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: القرآن، الحجاج، الخطاب، الأسلوب، البلاغة، اللّغة.

***

Abstract:

Arabic studies have abounded in the Noble Qur'an and in various legal and linguistic disciplines, and it is not surprising that it is the broadest book and biggest event in which the nation was interested, and enormous efforts were made to study it because all the sciences were emanating from it, and so it must be referred to for studying. For this reason, the Holy Qur'anic text has many characteristics, the source of which is its miraculous nature, and the magic of its statement.

The Qur'anic text relied on graphic mechanisms related to argumentation as a primary means of persuasion and influence. The Qur'an employs an argumentative discourse that is directed primarily to influence the addressee's opinions and behavior, direct souls, and guide minds as it came in response to discourses based on contradictory beliefs and approaches. Falsehood cannot come at it from before it or from behind it, so it presents different arguments to prove its sincerity, and that the truth is with it, and it has employed many argumentative methods that secure these ends. In this research, we treat the graphic images in Surat Yusuf, to achieve the goal of this research, which is to reveal the arguments in the Qur'anic stories and prove that the discourse in the Qur'anic stories is argumentative. That is, revealing the arguments of the Qur'anic story, its manifestations and images through Surat Yusuf.

The essential uniqueness of persuasion, guidance and influence in the Holy Qur'an, which makes primarily an argumentative discourse, made us take advantage of the deliberative approach in revealing the graphic images employed by the Qur'an for persuasion, and the inductive approach in collecting scientific material. In this research, we try to answer the following question:

1- What are the most important graphic images used in the Qur'anic story in Surat Yusuf to achieve persuasion?

The conclusion lists the most important findings of this research.

Keywords: *Quran, argumentations, discourse, style, rhetoric, language.*

مقدمة

يسلك القرآنُ الكريم في إقامة براهينه وحججه طرقًا عدة، وتتنوّع في طريقة العرض لتكون أدعى للقبول وألزم للحجة، وأكثر ملاءمة للعقول البشرية، والحالات النفسية في كل زمانٍ ومكان تحقيقًا لإعجاز القرآن العظيم وخلوده.

والقصص القرآني واحدٌ من أعظم الطرق التي سلكها القرآن الكريم في الإحتجاج على الخصم فقد " اتخذ القرآن الكريم من القصص سبيلًا للإقنا ع والتأثير، وفي ضمن القصة أدلةٌ على بطلان الشرك وعبادة الأوثان، فقد يساق الدليل في القصة، ويأخذ صورته من واقع الحياة في حوادثها، فتصغي إليه الآذان، وتميل إليه النفوس، وترتاح إليه الأفئدة، وتتأثر بما فيه من عظات وعبر". (الألمعي، 1984،ص 79) .

فالقصة القرآنية كانت ومازالت من أهم العوامل النفسية التي لجأ إليها القرآن في محاجة مخالفيه وإلزامهم وإفحامهم، لنفي كلّ العقائد الباطلة التي كان يدين بها أهل الكتاب والمشركون وغيرهم، كذلك لتثبيت أصول الدين وزرع مبادئه في النفوس. (طبارة، 1999، ص 24)

لقد عرض القرآنُ الكريم قصصه عرضًا أدبيًا أبهر العقول، وهزّ العاطفة، وأثار الوجدان، فجعل من تلك الأحداث التاريخية عظة وعبرة وهداية وإرشادًا وإفحامًا لكلّ منكرٍ أو جاحد، وإنّك لتجدُ أنّ القصص القرآني يهدف فيما يهدف إليه إلى الرد على شبهات المعارضين والمنكرين، واثبات صدق التوحيد والرسالة وغيرها من العقائد، وهي بعد مملوءةٌ بالحجج القاطعة المفحمة التي تلجم كلّ عاصٍ متكبر متجبر، بل إنّك لا تكاد تمرُّ بقصةٍ من قصص هذا القرآن العظيم إلا وجدتها تحمل في طياتها حجّةً بالتلويح أو بالتصريح.

ولهذا كان القصص القرآني هو أحد الأساليب التي حملها القرآن ليحاجّ بها النّاس وليقطعهم عن الجدل والمماحكة، شأنه في ذلك شأن ما جاء به القرآن من أساليب الاستدلال والمناظرة والتعجيز (الخطيب، 1975م، ص08).

والقصص القرآني قد يساق لإيضاح أسس الدعوة، وتثبيت قلب المصطفى (ص)، وقد يساق أيضًا لمقارعة أهل الكتاب وغيرهم بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى" فالقرآن كتاب دعوة دينية قبل كلّ شيء، والقصة إذن إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها شأنها في ذلك شأن الصور التي يرسمها للقيامة والنعيم والعذاب، وشأن الأدلة التي يسوقها على البعث وعلى قدرة الله، وشأن الشرائع التي يفصلها والأمثال التي يضربها. (نوفل، 1989م، ص 33).

إذن يمكننا القول إنّ القصص القرآني أداة حجاجية وأسلوبية معجزة قوية الغاية منها التأثير في الناس وإقناعهم بصدق دعوة النبي محمّد (ص).

وإنّ المتأمل في سورة يوسف " مدونة البحث" ليجدُ أنّها أطولُ سورةٍ تمحضت لقصةٍ واحدةٍ في القرآن، تبدأ برؤيا النبي يوسف وتنتهي بتفسير هذه الرؤيا " وقد أوفت القصة بالغرضين الديني والفني، فمنذ أن تبدأ قصة يوسف لتسير مفصلة حتى تنتهي، كلّها تفصّل تفصّيلا دقيقًا، لأنّ التفصيل مقصود، أولًا: لإثبات الوحي والرسالة، وثانيًا: لأنّ لهذه التفصيلات قيمتها الدينية في القصة". (قطب، د.س، ص134)

وقد وقع إختيارنا على هذه المدونة القرآنية(سورة يوسف) لما تمثله من أسلوبٍ خاصٍ من أساليب إعجاز القرآن الكريم، وهو إعجاز في أسلوب القصص، والمملوء بالحجج القاطعة المفحمة، ولهذا قال ابن

عاشور في تحريره وتنويره:" إنّ في هذه السورة أسلوبًا خاصًا من أساليب إعجاز القرآن، وهو الإعجاز في أسلوب القصص، الذي كان خاصة أهل مكة يعجبون مما يتلقونه منه من بين أقاصيص العجم والروم، فقد كان النَّضِرُ بن الحارث وغيره يفتنون قريشًا بأن ما يقوله القرآن في شأن الأمم هو أساطير الأولين، اكتتبها محمّد(ص) فجاءت هذه السورة على أسلوب استيعاب القصة تحديًا لهم بالمعارضة". (عاشور، 1976، ص ص 199.200).

وإنّ" الآساليب البلاغية قد يتم عزلها عن سياقها البلاغي ليؤدي وظيفة لا جمالية، بل يؤدي وظيفة إقناعية استدالية ، من هنا يتبين أنّ معظم الآساليب البلاغية تتوفر على خاصية التحول لأداء أغراض تواصلية ولانجاز مقاصد حجاجية" (لحباشة، 2008، ص50).

إذن الآساليب البلاغية قد تتوفر على خاصية التحول لإنجاز مقاصد وأغراض حجاجية، وقد قسم تقنيات الحجاج عبد الهادي بن ظافر الشهري في كتابه" استراتيجيات الخطاب" إلى:"

- الأدوات اللغوية الصرفة مثل: ألفاظ التعليل، بما فيها الوصل السببي والتركيب الشرطي، وكذلك الأفعال اللغوية والوصف....

- الآليات البلاغية مثل: تقسيم الكل إلى أجزائه، والاستعارة، والتمثيل والبديع.....

- الآليات شبه المنطقية: ويجسدها السلم الحجاجي بأدواته وآلياته اللغوية، ويندرج ضمنه كثيرٌ منها: مثل: الروابط الحجاجية(لكن، حتى، فضلا عن، ليس كذا فحسب، أدوات التوكيد).

- وبعض الآليات التي منها: الصيغ الصرفية مثل: التعدية بأفعل التفضيل والقياس وصيغ المبالغة. (الشهري، 2004، ص 477) .

ويهدف هذا البحث لدراسة الآليات البلاغية في سورة يوسف مستفيدًا من المنهج التداولي في الكشف عن الصور البيانية الموظفة في سورة يوسف للإقناع، وتطلبت طبيعة البحث إتباع المنهج الاستقرائي في جمع المادة العلمية .

وسوف نتناول في بحثنا هذا الصور البيانية في سورة يوسف، وأبعادها الحجاجية التي تشتمل عليها السورة.

1. الآليات البلاغية للحجاج في سورة" يوسف" عليه السلام.

البلاغة آلية من آليات الحجاج ما في ذلك من شكّ؛ وذلك نظرًا لاعتمادها التأثير في المتلقي عن طريق الحجاج بالصور البيانية والأساليب الجمالية التي تقنع المتلقي عن طريق استمالة تفكيره ومشاعره معًا.

كما" أنّ الاستعارة والمبالغة والطباق هي وسائل بلاغية، من حيث إنّها تساهم في الاقناع والتأثير، ولكنها أيضًا حجاجية من حيث إنّها تعبر عن الحجج بطريقة مركزة، مع جعلها أكثر تأثيرا وإصابة " (الشهري، 2004، ص 456). وهذا يعني أنّ التشبيه والاستعارة والكناية وغيرها من وجوه البيان هي من مسالك الاستدلال والحجاج، والاستدلال" ليس عملية عقلية استنباطية محضة، بل عملية خطابية، لذلك لا يخرج الاستدلال عن دائرة التشبيه والاستعارة، وبشكل أعم عن دائرة المجاز" ". (أعراب، 2010، ص43) إذ إنّ للمجاز دورًا كبيرًا في الحجاج والإقناع؛ لأنّه من جهة أولى يؤدي وظيفة استدلالية ويتوجه بالأساس إلى عقل المخاطب؛ ولأنّه من جهة ثانية يؤدي وظيفة نفسية ويستهدف التأثير في المخاطب . (المودن، 2010، ص161)

فالمتكلم له دربان لتبليغ مقاصده، دربٌ الحقيقة، ودربٌ المجاز فالجرجاني يرى أنّ " الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تخبر زيد مثلا بالخروج على الحقيقة فقلت: خرج زيدٌ.... وضربٌ أخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضية موضوعه في اللّغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر الكناية والاستعارة والتمثيل .. (الجرجاني، 1988،ص 202)

وسوف نبدأ بعرض الأمثلة من حيث انتهى الجرجاني بالكناية ثم أعرج على الاستعارة و التشبيه والمجاز المرسل وأختم بالطباق.

2. الكناية ودلالاتها الحجاجية:

1- قال تعالى: " قَالُوا يا أَبَانَا مَا لَكَ لا تأمنَّا على يُوسُف وإنا لهُ لناصِحُونَ" (القرآن الكريم،سورة يوسف الآية 11).

قال المفسرون: لما أحكموا العزم ذكروا هذا الكلام وأظهروا عند أبيهم أنّهم في غاية المحبة ليوسف وفي غاية الشفقة عليه ، ليستنزلوه عن رأيه في تخوّفه منهم، وكأنّهم قالوا: لم تخافنا عليه ونحن نخبة ونريد الخير به؟". (الصابوني، د.س)

فالآية الكريمة " كناية عن الشفقة والحنان، والمعنى: نحن لا نحافظ عليه فحسب، بل يكون محل رعايتنا وعطفنا فالنُّصح مرحلة فوق الإشفاق والحبّ، بل فيها معنى الحنو والعطف والرحمة وزيادة". (باحاذق، 1997، ص 75)

ويمكننا رسم مسار الكناية حجاجيًّا في هذه الآية الكريمة التي إتخذ أخوة يوسف من حبّهم وحنانهم على أخيهم يوسف حجةً لإقناع أبيهم يعقوب عليه السلام بأن يستأمنهم.

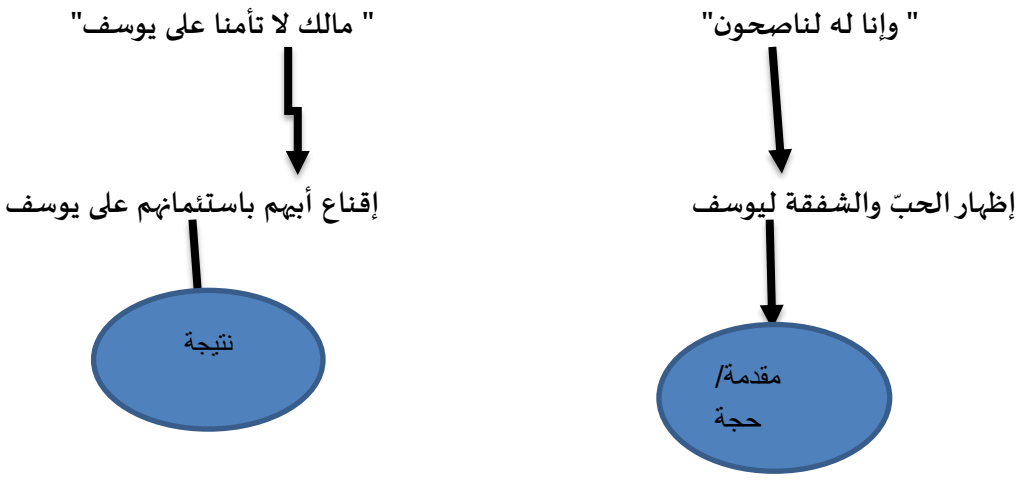

فدور هذه الكناية دورٌ حجاجي يكمن في أنّها قول أبلغ وحجة أقوى في التدليل على إظهار محبتهم وشفقتهم على يوسف وتلك المقدمة أفضت إلى النتيجة وهي الوصول إلى إقناع أبيهم باستئمانهم على يوسف عليه السلام" .

3. الاستعارة ودلالاتها الحجاجية:

يعرف أبو بكر العزاوي الاستعارة الحجاجية بقوله هي:" استعارة تدخل ضمن الوسائل اللغوية التي يشغلها المتكلم بقصد توجيه خطابه، وبقصد تحقيق أهدافه الحجاجية، فالاستعارة الحجاجية هي النوع الأكثر انتشارًا لارتباطها بمقاصد المتكلمين وبسياقاتهم التواصلية والتخاطبية" (العزاوي، 2006، ص 108).

إذن الاستعارة الحجاجية تهدف إلى إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي للمتلقي، فهي عند أرسطو مظهر خارجي يجذب السامع ويبهجه، ولهذا يصرّ على استعمال الاستعارات البسيطة والقريبة والواضحة وضوحًا تامًا .....وينضح بعدم الاكثار منها حتى لا يخرج بها من الاستعارات الحجاجية إلى الاستعارات الشعرية . (العزاوي، نحو مقاربة حجاجية للاستعارة مجلة المناظرة نقلا عن: عبد الهادي ظافر الشهري،، 1991، ص ص 78-84).

سنأخذ أنموذجين للاستعارة الحجاجية في سورة يوسف عليه السلام:

1- يقول تعالى:" إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا والشَّمْسَ والقَمَرَ رِأَيْتُهُمْ لي سَاجِدِينَ".(القرآن الكريم،سورة يوسف الآية 04)

في الآية الكريمة استعارة مكنية فقد شبه الكواكب بقوم عقلاء ساجدين والسجود قرينة، قال ابن عبّاس:" رؤيا الأنبياء وحي والأحد عشر كوكبًا هم أخوته الأحد عشر نفرًا، والشمس والقمر أبوه وأمه؛ لأنّ الكواكب لا تسجد في الحقيقة فالسجود هنا للتحية، وكان بمنزلة المصافحة وانتقل من العبادة إلى التحية، والتقدير وهو سجود غير حقيقي ولكن يكون على شكل انحناء فقط أمّا السجود لله وحده.

2- قوله تعالى:" وَجَاءُوا عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ واللهُ المُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ". (القرآن الكريم،سورة يوسف الآية 18)

ففي الآية المباركة استعارة وصف بالمصدر المبالغ كأنّه نفس الكذب وعينه، فالدم الذي في القميص ليس حقيقي من جهة مخالفة لونه لون ما هم فيه، "وجاءوا على قميصه بدمٍ كذب" أي مكذوب مفترى، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالثوا عليه من المكيدة، وهو أنّهم عمدوا إلى سلخه فيما ذكره مجاهد والسدي وغير واحد، فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها موهمين أنّ قميصه الذي أكله الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوا فلهذا لم يرج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب، بل قال لهم معرضًا عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه " بل سوّلت لكم أنفسكم أمرا فصبرٌ جميل".

4. التشبيه/ التمثيل ودلالته الحجاجية:

ذهب ابن الأثير في كتابه "المثل السائر" إلى أنّه لا فرق بين التشبيه والتمثيل فهما شيءٌ واحد فقال:" وجدتُ علماء البيان قد فرقوا بين التشبيه والتمثيل، وجعلوا لهذا بابًا مفردًا، ولهذا بابًا مفردًا، وهما شيءٌ واحد لا فرق بينها في أصل الوضع، يقال شبهت هذا الشيء بهذا الشيء، كما يقال مثلته به، وما أعلم كيف خفي هذا على أولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه". (ضياءالدين، د.ت، ص 219).

بيد أنّ هناك من العلماء من يرى أنّ التشبيه أعم من التمثيل، فعبد القاهر الجرجاني عنده كلُّ تمثيل تشبيه، وليس العكس؛ لانّ التشبيه أعم، والتمثيل أخص منه، فالتشبيهات عنده:" تراها لا يقع بها اعتداد ولا يكون لها موقعٌ من السامعين، ولا تهزُّ ولا تحرك، حتى يكون الشبه مقررًا بين شيئين مختلفين في الجنس" (الجرجاني ع.، 1991م، ص 118)

حتى أنّه كلما كان التباعدُ بين الشيئين في التشبيه شديدًا، كلما" كانت إلى النفوس أعجب، وكانت النفوس لها أطرب، وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب" (الجرجاني ع.، 1991م، ص 118)

ونلاحظ أنّ الجرجاني من جهة أخرى يتحدث عن القوة التأثيرية التي يحدثها التمثيل في فنون القول وضروبه:" ممّا اتفق العقلاء عليه أنّ التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة، وكسّبها منقبة، ورفع من أقدارها وشبّ من نارها، وضاعف قواها من تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفًا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبّة وشغفًا(....) فإن كان مدحًا كان أبهى وأفخم(...) وإن كان حجاجًا كان برهانه أنور وسلطانه أقهر وبيانه أبهر" (الجرجاني ع.، 1991م، ص 118) إذن التمثيل هو عقد صلة بين شيئين مختلفين في الجنس أو قل بين صورتين متباعدتين، فيترك قوة تأثيرية حجاجية برهانها أنور وبيانها أبهر في فنون القول وضروبه.

وأما الدراسات الغربية الحديثة فقد انصرفت إلى أنّ التمثيل طريقةٌ حجاجيةٌ قيمتها أكبر من المشابهة، فيرى بيرلمان أن التمثيل:" طريقة حجاجية تعلو قيمتها على مفهوم المشابهة المستهلك، حيث لا يرتبط التمثيل بعلاقة المشابهة دائما، وإنّما يرتبط بتشابه العلاقة بين أشياء ما كان لها أن تكون مترابطة" (Tytica، 1992، p50).

فالتمثيل والتشبيه ما هما إلا تقنيةٌ خاصةٌ في العملية الحجاجية عند البلاغيين العرب القدامى والغربين المحدثين، فنحاول في هذا البحث دراستهما كتقنية حجاجية لها فاعليتها في الاقناع، وذلك بما يوفره التشبيه من قوة حجاجية قادرة على إثارة المرسَل إليه، وشغل تفكيره بالبحث عن العلاقة التي تجمع بين صورة المشبه والمشبه به. وما لهذا التصوير من أثر على نفس المتلقي بما يحمله من برهان وإقناع يجعله قابلا بتلك التشبيهات.

ولذلك يعدُّ التشبيه القرآني من أهم الطرق التي يستخدمها القرآن الكريم في الاستدلال والمحاجة في سبيل الوصول إلى الإقناع، فترى الخبر مسوقًا بالحجة ليلقى قبولًا واستحسانًا لدى المتلقي، وسنأخذ نموذجًا من سورة يوسف قول النسوة: " إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ" (القرآن الكريم،سورة يوسف الآية 31)

ذهب فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير إلى:" أنّ النسوة لما رأين عليه هيبة النبوة والرسالة وعلامة التطهير والعفة، نفين عنه آثار الشهوة البشرية، وأثبتن له طهر الملائكة" (فخرالدين، 1981م، ص 129)

و قال ابن عاشور:" شبّهنه بواحد من الملائكة بطريقة حصره في جنس الملائكة تشبيهًا بلغيًّا مؤكدًا، وهذا التشبيه من تشبيه المحسوس بالمستحيل. (فخرالدين، 1981م، ص 263).

إنّ الحجة في هذا التشبيه البليغ المؤكد قائمةٌ على أنّ المشبه به وهو" المَلَك" والمعروف والمسلم به والمستقر في طباع البشر أنّ الملك أحسن من أي حيٍّ على الإطلاق، وهذا يؤدي إلى الاقتناع بحسن يوسف

الباهر وجماله الفتان، فالنسوة لما ظهر عليهن لم يتمالكن أنفسهن وأخذن بتقطيع أيديهن من فرط الجمال وشدة الانبهار بحسن يوسف عليه السلام، وتشبيهه بالملك" ما هو إلا ملك من الملائكة، فإنّ هذا الجمال الفائق والحسن الرائع مما لايكاد يوجد في البشر" (الزحيلي، 1998، ص 252)

فالواقعية في القصة القرآنية لا يغيرها خيالٌ قائم على التشبيه؛ وإنّما جاء التشبيه البليغ في هذه الآية المباركة لنقل المشاهد غير المرئية في صورة المشاهد المرئية لكي يكون وقعها على النفس البشرية أشدّ وتكتمل الصورة في وجدان وعقل المتلقي ويحصل بذلك الإقناع بأنّ جمال يوسف جمالٌ ملائكي أو قل فيه خواص الملك، كما عبّر عن هذا المعنى صاحب كتاب " التفسير المنير" بقوله " إنّما كان لِمَا جمع الله له من الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة التي هي من خواص الملائكة" (الزحيلي، 1998، ص 255)

وهنا تكمن قيمة التشبيه البليغ الموكد في هذه الآية"" إن هذا إلا ملكٌ كريمٌ" في حجاجيته ووصوله إلى حدّ الاقتناع والإقناع ، وأنّه لا ترجع قيمته في العلاقة بين طرفيه(المشبه والمشبه به)، ولا في زينة زخرفية تحسينية لفظية، وإنّما في حجاجيته التي زادت المعنى وضوحًا فقتنع بها المتلقي غاية الاقتناع.

5. المجاز المرسل ودلالته الحجاجية:

يؤكد السكاكي في مفتاحه على أنّ الاستدلال المجازي أكثر تأثيرًا من غيره، فإنّ أرباب البلاغة وأصحاب الصياغة للمعاني مطبقون على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، وأنّ الاستعارة أقوى من التصريح بالتشبيه، وأنّ الكناية أوقع من الإفصاح بالذكر" (السكاكي، 1987، ص412)

ويحمل المجاز قوةً تأثيريةً كبيرةً جدًّا وذلك ؛ لأنّه يخاطب عقل المتلقي ونفسيته، فهو من جهة يؤدي وظيفة حجاجية استدلالية بمخاطبته عقل المتلقي، ومن جهة أخرى يخاطب نفسية المتلقي. ولهذا فإنّ قيمة المجاز عند البلاغين العرب تكمن في قدرته على التأثير في الوقت ذاته على عقلية المتلقي ونفسيته، فليس الأمر متوقفًا على سعي المجاز إلى إقناع عقل المتلقي بدعوى ما، وإنّما يتخطى تأثيره إلى بلوغ النفس أيضًا، ومن ثم جعلها تقتنع بهذه الدعوى بل وتتبناها ليتمكن المعنى في القلب تمامًا، فالمجاز يعدُّ من أنجع الوسائل في التأثير في النفس والعقل معًا.

وسنأخذ أنموذجًا على المجاز المرسل في سورة يوسف عليه السلام:

قوله تعالى: "وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ" (القرآن الكريم،سورة يوسف الآية 82).

والتعبير مجار مرسل علاقته المحلية، قال ابن عاشور:" مجاز اختزل اللفظ وأفصح عن المعنى ، فسؤال القرية مجاز عن سؤال أهلها ولا يكون ذلك إلا بالإرسال أو المراسلة أو الذهاب إليهم، إن أراد الاستثبات" (عاشور، 1976، ص41)فأطلق لفظ القرية وأريد أهلها، والعلاقة محلية أو مكانية.

وقال البيضاوي:" أي أرسل إلى أهلها وأسألهم عن القصة" (البيضاوي، 1991، ص 268)

أي: أنك يا أبانا إنْ كنتَ تشك في أقوالنا؛ يمكنك أن تطلب أدلة أخرى من المكان الذي كنا فيه؛ لأنّ هذا الموضوع قد أحدث ضجَّة وحدث أمام جمع كبير من الناس، والقوافل التي كانت معنا شهدتْ الواقعة؛ فقد أذَّن مُؤذِّن بالحادث، وتَمَّ تفتيش العِير علنًا. وهذا المجاز مبالغة منهم في إزالة التهمة عن أنفسهم، لأنّه مشكوك فيهم، وكانوا متهمين بسبب واقعة يوسف(ع). (الزحيلي، 1998، ص44)

وقال ابن كثير: "{واسأل القرية التي كنا فيها}قيل المراد مصر، وقيل غيرها{:والعير التي أقبلنا فيها}أي التي رافقناها عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا، {وإنا لصادقون}فيما أخبرناك به من أنّه سرق وأخذوه بسرقته.

فالمجاز هنا تضمن حجة الإخوة في إقناع أبيهم ببراءتهم من تهمة السرقة، ويفضي إلى نتيجة مفادها صدقهم فيما أخبروه من أمر.

ويمكننا رسم الخطاطة الآتية:

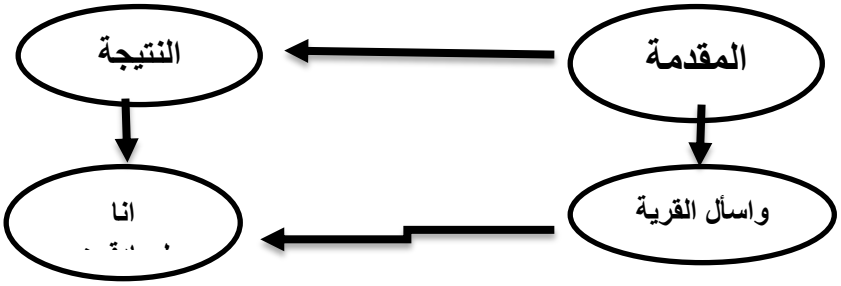

6. الطباق ودلالته الحجاجية:

يعرف الطباق على إنّه: " هو الجمع بين الشيء وضده في الكلام" (الهاشمي، 2016، ص303)

فالطباق أو المطالبة يقوم على إيجاد علاقة ظاهرة أو خفية بين معنيين متضادين في جملة واحدة مع وجود نوع من التناسب بينهما لإفادة غرض ما . قوله تعالى:

قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ" (القرآن الكريم،سورة يوسف الآية 26-27).

إنّ في هذا الطباق(صدقت والكاذبين/ كذبت والصادقين) جمعٌ من المعاني المتضادة جاءت في هاتين الآيتين من سورة يوسف(ع) لخدمة حجة واحدة أبطلت من خلالها ادّعاء امرأة العزيز وأثبتت براءة يوسف(ع).

وإنّ في هذا الطباق أيضًا قيمة حجاجية تظهر في " زيادة (وهو من الكاذبين) بعد (فصدقت)، وزيادة (وهو من الصادقين) بعد(فكذبت) وفي هذا تأكيد لزيادة تقرير الحق". (عاشور، 1976، ص 258)

ولقد تضمنت الآيتان قول الشاهد" وسمّي قوله شهادة لأنّه يؤول إلى إظهار الحق في إثبات اعتداء يوسف(ع) على سيدته أو دحضه، وهذا من القضاء بالقرينة البينة، لأنّها لو كانت أمسكت ثوبه لأجل القبض عليه لعقابه، لكان ذلك في حال استقباله له إياها، فإذا أراد انفلات منها تخرق قميصه من قبل، وبالعكس إن كان إمساكه في حال فرار أو إعراض، ولا شك أنّ الاستدلال بكيفية تمزيق القميص، والظاهر أنّ هذا الشاهد كان يظن صدقها، فأراد أنّ يقيم دليلا على صدقها، فوقع عكس ذلك كرامة ليوسف – عليه السلام- " (عاشور، 1976، ص 258)

وفي موطن ثان من سورة يوسف نجد جمعًا بين المعاني المتضادة: سمان عجاف/ خضر ويابسات. قوله تعالى:" وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ۖ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ".(القرآن الكريم،سورة يوسف الآية 43).

لقد جمع الطباق هنا بين المعاني المتضادة: سمان عجاف/ خضر ويابسات.

قال الزمخشري: تأويل يوسف (ع) البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، ثم بشّرهم بأنّ العام الثامن يجيء مباركًا خصيبًا كثير الخير غزير النعم، وذلك من جهة الوحي". (الزمخشري، 1998،)

وحجاجية الطباق هنا تتجلى في إثبات قدرة يوسف(ع) على تفسير وتأويل هذه الأمور الغامضة(عجاف- سمان/ خضر- يابسات) في منام الملك، وهي من وحي الله وإلهامه، معجزة دلت على صدق نبوة يوسف(ع).

إذن الطباق له أهمية كبرى في عملية الإقناع والتأثير: فهو من المحسنات البديعية المعنوية التي تسهم في توضيح المعنى، وتزيده قوة وجلاء، فالأشياء بضدها تتضح.

7. خاتمة

لقد اتّضح من خلال بحثنا هذا **حجاجية الصور البيانية في القصص القرآني: سورة يوسف عليه السلام أنموذجًا"**

إنّ الآليات البلاغية كان لها أثرٌ في عملية الاحتجاج والإقناع في القصص القرآني، ولعلّ مقاربتنا الحجاجية التي قدّمناها في بحثنا هذا للحجاج في القصص القرآني الآليات البلاغية : سورة يوسف(ع) أنموذجًا، قد أسفرت عن مجموعةٍ من الاستنتاجات نبرزها في الآتي:

1- لقد حاولنا في هذا البحث استثمار المعرفة الحجاجيّة في مقاربة شواهد بلاغية من سورة يوسف (ع) تم توظيفها حجاجيًّا الأمر الذي ساعدنا في إبراز بعض مقومات نجاعة هذه الشواهد. وإنّ التّعبيرات التي جاءت على هذا النّمط المجازي فيها بناءٌ حجاجيٌّ بامتياز سواءٌ في تلك العبارات التي وردت في التشبيه، أو الاستعارة، أو المجاز المرسل، أو الكناية، أو الطباق.

2- إنّ التشبيه القرآني الحجاجي من أهم طرق الاستدلال والمحاجة في سبيل الوصول إلى الإقناع، فالخبر يساق مقرونًا بحجته حتى يلقى قبولًا من المتلقي فالصورة التشبيهية لا تقود إلى المعنى المقصود مباشرة؛ ولكن تدفع المتلقّي إلى إعمال فكره وربط المعنى الظاهر بالمعنى الخفيّ لاستجلاء أبعادها، فيخلق في نفس المتلقّي اقتناعًا بالنتائج التي توصل إليها، وحتى يكون وقعها على النفس أشد وتكتمل الصورة في عقل المتلقي ويحصل الإقناع.

3- إن الخيال القائم على التشبيه في القرآن الكريم عامة، وسورة يوسف (ع) خاصة لم يغير مجرى الواقعية في القصة القرآنية، فقد جاء التشبيه لنقل المشاهد غير المرئية في صورة المشاهد المرئية لكي تكتمل الصورة في ذهن المتلقي فإنّ وقعها على نفسه أشد، وفي عقله أقوى فيحصل الاقتناع.

4- لقد لعب المجاز المرسل دورًا كبيرًا في الحجاج والاقناع في القصص القرآني عامة، وقصة يوسف خاصةً، فهو من جهة أولى يؤدي وظيفة استدلالية ويتوجه إلى عقل المخاطب؛ ولأنّه من جهة ثانية يؤدي وظيفة نفسية ويستهدف التأثير في نفسية المخاطب. فقد أكدّ المجاز المعنى، وقوه بشيءٍ من الإيجاز فله تأثيرٌ بالغ، وأثر جلي في استمالة المتلقي، فهو يعتمد _ كما بينا في البحث- على العلاقات المجازية كوسيلة حجاجية تستميل المتلقي وتستفز شعوره وتؤثر فيه.

5- لقد كان التصوير بوسائله التي توسل بها من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز مرسل وطباق واحدًا من أهم الطرق التي سلكها القرآن الكريم في حجاجه مع خصومه ومعانديه، فلقد استعمل كلَّ الأدوات التي توضح الفكرة وتقوي الدليل، وتميط اللثام عن الشبهة، وتمثلت هذه الأدوات في الألفاظ المعبّرة، والتعبيرات المصورة، والمشاهد المحسوسة والحوادث المنظورة بغية إيقاظ الأحساس والوجدان وتهيئة النفس للاقتناع والإذعان.

6- إنّ تمثيل الوقائع بطريقة الاستعارة لا يخرج القصة القرآنية عن واقعيتها، فالاستعارة في القصص القرآني حجاجية بإمتياز، فهي تنقل المتلقي من المجرّد إلى المحسوس وتكسب الحجج قوة من أجل تحقيق الإقناع كأن ترى الجماد ناطقًا، فالخيال في القصة القرآنية ليس مقصودًا لذاته، وإنّما أراد الله عزّ وجلّ منه أن يجلي به الوقائع كأنّها ماثلةٌ أمام أعين الخلق المتلقين للخطاب القرآني، وهنا تبرز الواقعية في ثوبها المحسوس الملموس بغية التأثير والإقناع.

وخلاصة القول إنّ الصور البيانية في سورة يوسف (ع) من (تشبيه واستعارة ومجاز مرسل وكناية وجناس) وإن كان لها وظائف متعددة تختلف من آية إلى أية ومن تركيب إلى تركيب إلا أنّ أكبر هذه الوظائف و أخطرها على الإطلاق هي الوظائف الحجاجية التي تكشف الأستار عن الحقائق وتبرز الغائب في صورة الشاهد وتظهر المتخيل في معرض اليقين، كلّ ذلك من أجل إفحام الخصم بالحجج وإستمالته للإقتناع و للإذعان. وهذا ما يجعلنا نعتقد جازمين بجدارة هذا المبحث بالدّراسة والتّحليل نظرًا إلى أنّ الخوض في هذا المُعطى من شأنه أن يَعِد بنتائج مفيدة ويفتح آفاقًا رحبة في هذا المجال.

Bibliographie

1. Tytica, C. P. (1992). *Traite the largumentation.* Edition the university Bruxelle: leme edition.

2. أعراب, ا .(2010) .الحجاج والاستدال الحجاجي؛ عناصر استقصاء نظري .*كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته؛ دراسات نظرية وتطبيقة في البلاغة الجديدة*.43 ,

3. الألمعي, ز .ع .(1984) .*مناهج الجدل في القرآن الكريم* .الرياض :مطابع الفرزدق.

4. البيضاوي, ا .(1991) .*تفسير البيضاوي* .إسطنبول، تركيا :مكتبة الحقيقة.

5. الجرجاني, ع .(1988) .*دلائل الإعجاز في علم المعاني تحقيق محمّد عبده وأخرون* .بيروت :دار الكتب العلمية.

6. الجرجاني, ع .ا1991) .م .(*أسرار البلاغة، تحقيق :محمّد عبدالمنعم خفاجي، وعبدالعزيز شرف* .بيروت :دار الجيل.

7. الخطيب, ع .ا1975) .م .(*القصص القرآني في منطوقه ومفهومه* .بيروت :دار المعرفة.

8. الزحيلي, و .(1998) .*التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج* .بيروت :دار الفكر المعاصر.

9. الزمخشري ,ج .ا .(1998) .*تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق وتعليق ودراسة :عادل أحمد عبد الموجود وأخرون* .الرياض :مكتبة العبيكان.

10. السكاكي .(1987) .*مفتاح العلوم، تحقيق :نعيم زرزور* .بيروت :دار الكتب العلمية.

11. الشهري ,ع .ب .(2004) .*استراتيجيات الخطاب* .بيروت :دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي -ليبيا :دار الكتب الوطنية.

12. الصابوني ,(م .ع) .د.س .(*صفو التفاسير* .بيروت :دار الجيل.

13. العزاوي ,أ .ب .(30 05 ,1991) .نحو مقاربة حجاجية للاستعارة مجلة المناظرة نقلا عن :عبد الهادي ظافر الشهري .,*العدد4، السنة الثانية، ماي، 1991م المغرب*.84-78 .pp ,

14. العزاوي ,أ .ب .(2006) .*اللّغة والحجاج* .المغرب :العمدة في الطبع.

15. الكريم ,ا .(الآية 11) .*سورة يوسف* .القرآن الكريم.

16. المودن ,ح .(2010) .حجاجية المجاز والاستعارة .*مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته؛ دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة،إعداد وتقديم :حافظ إسماعيل علوي*.161 ,

17. الهاشمي ,س .أ .(2016) .*جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تحقيق يوسف الصميلي* .بيروت : المكتبة العصرية.

18. باحاذق ,ع .م .(1997) .*الدلالة الإعجازية في رحاب سورة يوسف عليه السلام* .دمشق :دار المأمون للتراث.

19. ضياءالدين ,ا .ا .(د.ت) *المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق :أحمد الحوفي، بدوي طبانه* .القاهرة : دار النهضة.

20. طبارة ,ع .ع .(1999) .*مع الأنبياء في القرآن* .بيروت :دار العلم للملايين.

21. عاشور ,ا .(1976) .*تفسير التحرير والتنوير* .تونس :الدار التونسية.

22. فخرالدين ,ا1981) .*التفسير الكبير ومفاتيح الغيب* .بيروت :دار الفكر للطباعة والنشر.

23. قطب ,س .(د.س) .*التصوير الفني في القرآن* .بيروت :دار الشروق.

24. لحباشة ,ص .(2008) .*التداولية والحجاج :مدخل ونصوص* .سورية :صفحات للطباعة والنشر.

25. نوفل ,أ1989) . *سورة يوسف : دارسة تحليلية* .بيروت :دار الفرقان.